الجبّ

أين أنا؟؟

لا أستطيعُ تذكرَ ما حدث معي قبل دخولي في هذا الظلامِ ولا أستطيعُ تحريكَ جسدي.

لكن أشعر بشيءٍ ما في يدي. إنها.. إنها ملعقة، وأصابعي قابضةٌ عليها، لكن من أين أتت؟

آه.. تذكرتُ، لقد كنتُ أتناول الطعامَ في بيت عمي، فقد استيقظتُ يومها ووجدتُ أمي تحضّر حقيبةً لملابسي وبعضَ ألعابي أيضًا، ثم بدلت لي ملابسي، وأخبرني أبي أنني سأمكثُ في بيت عمي لبعضِ الوقت مع عائلته وابن عمي الكبير، وسيأتي ابن عمي الصغير ليمكثَ هو هنا في بيتنا مع أخي الكبير.

وعندما سألتُه:

"لمَ كلُ هذا؟"

أجابني:

"ليستمرَ نسلُنا يا ولدي.."

لم أفهمه، لكن يقيني بأن أبي دائمًا يفعلُ الصوابَ لعائلتنا جعلني لا أناقشُه.

كان القلقُ يكبرُ على وجهِ أبي كلَ يوم منذ بدءِ الحربِ على مدينتنا. لا أعلم لماذا كان قلقًا لهذه الدرجة، فهذه ليست أولَ مأساةٍ تمرّ على مدينتنا، لكن يبدو أنه كان يعلمُ شيئًا مختلفًا هذه المرّة.

ذهبنا لبيتِ عمي وتركني هناك بعد أن أخذ ابن عمي الصغير، شعرتُ بالحزنِ قليلًا لابتعادي عن بيتنا وحنيني لأمي، لكنهم جميعًا في بيت عمي حاولوا أن يُسرّوا عني؛ فحكت لي جدتي بعض حكاياتها ولعب ابن عمي الكبير معي كما يلاعبُ أخاه.

وعندما جلسنا للطعامِ ليلًا، سمعنا أصواتًا هائلة تدّق في أماكنَ قربَنا في المدينة، هرع على أثرها كل من في البيت، وسمعتُهم يقولون كلماتٍ متداخلةٍ مثل..
صواريخ.. طائرات.. قنابل.

قاموا جميعًا من على طاولةِ الطعامِ وتفرقوا في أرجاءِ البيتِ يطفئون الأنوارَ.
نظرتُ إليهم في رعبٍ وحيرةٍ أراقبهم وهم يركضون وسريانُ الأصواتِ المخيفةِ في الخارجِ يركضُ إلينا أسرعَ منهم.

لم أدرِ ماذا أفعل؛ فقلتُ أفعل كما يفعلون.

فقمتُ من على الطاولةِ وأنا لا أزالُ أحملُ الملعقةَ في يدي قابضًا عليها من الخوفِ لأطفئَ الأنوارَ في اللحظةِ التي تجمعوا فيها وفي نفسٍ واحدٍ هتفوا باسمي لأذهبَ إليهم وأرمي نفسي بين أحضانهم؛ فنظرتُ إليهم وكانت نظرةُ الفزعِ على وجوههم هي آخرَ ما رأيتُ قبل أن أطفئَ المصباحَ، ومن بعدها لم أرَ نورًا، فقط سمعتُ صوتًا رهيبًا كالرعدِ فوق رأسي، وفي أقل من لحظةٍ وجدتُ نفسي أهوي في الظلامِ مع صرخاتهم المرعبةِ، ثمّ.. ثمّ.. لا أذكر.

هل هذا السقوطُ العنيفُ هو الموت؟

لكن لماذا أظن أنني ميتٌ وليس لدي دليل؟

ولكني لا أستطيعُ تحريكَ جسدي، فأمي قد أخبرتني أن الميتَ لا يتحرك ولا يشعر.
ولكني أشعرُ بالملعقةِ في يدي، وبصداعٍ عنيفٍ يصاحبه ألمٌ أعنف يضربُ رأسي.

إذن أنا لستُ بميتٍ. لكني أشعرُ أن أثقالًا على جسدي وصدري تجعلني أتنفسُ بصعوبة، هل هي التي تمنعني من الحركة؟ ولماذا يحيطُ بي كلُ هذا الظلام؟

إذا لم أكن في قبرٍ، فأين أنا؟؟ أأكون...

يا إلهي!! ومنذ متى؟؟ وإلى متى سأبقى هنا؟؟

ألن يشعرَ بي أحد؟ أستصبح هذه الأطلالُ قبري وأنا حيّ؟

هناك أصواتٌ.. ينادون أسماءَ ساكني البناية، ينادون أسماءَ أفرادِ عائلةِ عمي وينادون اسمي، أسمعُ صوتَ أبي وابن عمي الصغير بينهم.

أنا هنا.. لا أستطيعُ أن أنطقَ؛ الأثقالُ التي لا أراها تمنعُ صوتي من الخروجِ، صرختي مكتومةٌ، لا قريبَ يسمعها ولا بعيدَ يشعرُ بأنينها.

لماذا أصواتكم تبتعد؟ لا.. لا تذهبوا بعيدًا.. هل ستتركونني وحدي في هذا الجب؟ هل ستبخسون ثمني إلى هذا الحد؟

لا تفقدوا الأملَ في إيجادي.. عودوا.. أنا لا أزالُ حيًّا.. أنا لا أزالُ حيًّا...